الفصل الثامن

اتحاد العقل بالحقيقة

"يبدو أننا نستطيع بالبداهة الذوقية أن ندرك أنظمة من العلاقات شاملة؛ وهي من التعقيد بحيث لا تستطيع قوة العقل الإنساني المجرد– على ما أوتيت من صبر وتحليل– أن تفرغ من تفصليها إلى أجزائها. فمقطوعة (ووردورث) في قنطرة (وستمنستر)، والجزء الأخير من أوبرا (ترستان)، ومجموعة التفاح من رسم (سيران)– كل هذه تعطينا في خمس دقائق أكثر مما يستطيع الفيلسوف أن يشرحه في محاضرة تستغرق ستين دقيقة".

سيرل بيرت

هل عرفنا الحقيقة؟

عرضت عليك أسلوبي التفكير العلمي والفلسفي، وكفاح العلماء والفلاسفة في سبيل الوقوف على حقيقة الكون، وبينت لك أن العلم أكثر تواضعاً لأنه يسعى على الخصوص إلى معرفة ما يبدو لنا، وأن الفلسفة، أو الميتافيزيقا على الأصح، هدفها الحقيقة في ذاتها لا ما يبدو لنا منها– وبتعبير فني– الحقيقة المطلقة لا النسبية. وفي سبيل الوصول إلى هذا

الهدف تستخدم الفلسفة المنهج العقلي. فهل وصلت إلى هدفها؟ وهل هنالك غير العلم والفلسفة وسائل أخرى للمعرفة؟

لابد كي تكتمل الفكرة عن الفلسفة، أن نكشف عن محاولات اتخذت للوصول إلى الحقيقة غير العقل والتجريب. وفي هذا الفصل وما يليه أعرض نماذج من هذه المحاولات قام بها فلاسفة اختلفت مناهجهم عن المنهج المألوف، ونبدأ في هذا الفصل بتفصيل المنهج الذي يراه برجسون[1] كفيلاً بتحصيل معرفة مطلقة كاملة بالحقيقة في ذاتها، ذلك هو المنهج الذي سماه صاحبه "الحدس" (intuition).

يقرر برجسون أن الفلاسفة إذ يستخدمون الحواس والتأمل العقلي، كمنهج لمعرفة الأشياء في ذاتها، يخطئون خطأ جسيماً لأنه منهج لا يحصل غير معرفة نسبية، لا معرفة مطلقة. وعليه فالميتافيزيقا باعتبارها البحث في ماهيات الأشياء أو حقائقها المطلقة الثابتة، حلم لن يتحقق ما لم نستخدم منهجاً كفيلاً بتحقيق تلك المعرفة المطلقة. وأن مثل هذا المنهج لابد أن يكون أسمى من قوى العقل والإحساس، فقد عجز كلاهما عن بلوغ الحقيقة في كمالها، كما يثبت ذلك تاريخ الفكر. وتاريخ الفكر يبين لنا أن بعض الناس بمجوداتهم التي تختلف عن مجهودات الفلاسفة، استطاعوا توسيع مدى إدراكهم حتى بلغوا أموراً لم يبلغها الفلاسفة، وجعلونا ندرك أموراً لم يكن في وسعنا من قبل أن ندركها.

---

[1] فيلسوف فرنسي توفي منذ سنوات وكان له تأثير كبير في فرنسا وخارجها.

الفن والحقيقة

أولئك هم الفنانون الذين نجحوا– في نظر برجسون– في إزالة ذلك الستار الكثيف الذي يقف حائلاً بين قوى الإدراك وبين حقيقة الأشياء، واستطاعوا النفاذ ببصائرهم إلى ما وراء ذلك الستار. إن ما يقصده برجسون هو أن الفن إذ يعبر عن شيء ما. لا يجزئه أو يحلله كما يفعل العقل إذ يحلل الموضوع إلى أفكار ومعان لا يمكن أن تكفي لتصوير حقيقة الشيء كما هو في الواقع. فبينما يقضي العقل على وحدة الموضوع الذي يدركه، ولا يعطينا إلا فكرة مشوهة عنه، نرى الفن يحتفظ بوحدة ذلك الموضوع، ويحسه بكليته، ويعطيك إياه صورة حية متكاملة.

يوضح ذلك قول الأستاذ "سرل برت"[1]:

"يكون الموضوع واحداً، ولكن طريقة الإبصار تختلف: فعالم النبات يفصل الزهرة قطعاً وأجزاء، ولكن الفنان يريك إياها زهرة حية. وعالم التشريح يشرح لك الجثة الميتة حتى عظامها المتماسكة؛ وأما المثال فيعطيك اللحم النابض محولاً إلى رخام فيه حياة. وعالم النفس يخبرك بكل ما هنالك عن التجربة الانفعالية، ولكن الشاعر يعينك على أن تحيا تلك التجربة، وعلى أن تستحوذ عليها وتجعلها ملكاً لك، فالعلم تحليلي والفن تركيبي؛ العلم صريح والفن ضمني، والعلم مجرد والفن ملموس".

---

[1] "كيف يعمل العقل" الجزء الثاني ترجمة الأستاذ محمد خلف الله.

إلى شيء من هذا يقصد برجسون حين يلح على أن الفن أقرب إلى حقيقة الشيء من العلم أو الفلسفة، وما ذلك إلا لأن الأول يحس الشيء برمته ويصل إلى كنهه بحركة نفسية واحدة، ويحياه ويتحد به، في حين الثاني يحلله ويجزئه، فيفسده قبل أن يقدمه إليك صورة جامدة مجزأة لا حياة فيها.

وإذا كان الفن قد وفق فعلاً بمنهجه إلى هذه النتيجة، فلا استحالة يراها برجسون في إقامة منهج ميتافيزيقي يوصلنا إلى حقيقة مطلقة، منهج هو أشبه شيء بمنهج الفنان الذي يتحد مع الحقيقة، أما كيف توصل الفن إلى ذلك، فلأنه أدرك أن التقيد في فعل المعرفة بضرورات الحياة العملية، من شأنه أن يحصر الفكر في دائرة ضيقة، هي دائرة النفع العملي. هكذا أدرك برجسون أن الفلسفة بدورها يمكنها أن توسع من نطاق إدراكها للحقائق، بأن تتخلى عن أسلوب التفكير المعتاد، ذلك الأسلوب هو معرفة الأشياء بقصد استخدام المعرفة في تحقيق الأغراض العملية، وتحديد سلوك المستقبل على أساسها. ذلك الأسلوب يقتضي الوقوف عند ظواهر الأشياء لأن العلم بها يصلح أساساً للعمل والسلوك، ويكفي لأغراض الحياة العملية. ولكن الميتافيزيقا لا تهدف إلى معرفة الظواهر، بل إلى ما هو أعمق، إلى الجواهر والحقائق، في ذاتها لا كما تبدو لنا. ولذلك يتعين عليها أن تقلع عن التفكير العادي وتحول اتجاه الفكر– كما يفعل الفن– وتوجهه إلى صميم الأشياء، أي أن تستخدم منهج "الحدس" الكفيل وحده بإقامة الميتافيزيقا.

الحدس والنظر العقلي

ما الحدس إذن؟ يعرفه برجسون بقوله: "ذلك الانجذاب العقلي الذي ينقلنا إلى صميم الشيء لنتطابق مع كنهه الذي لا سبيل إلى التعبير عنه"[١]. وبقوله في موضع آخر: "هو محاولة العقل الإنساني في نقائه الأصيل، العثور على الحقيقة التي برغم أنها مستقلة عنا إلا أنها يمكن أن تحصل لنا على نحو مباشر". وما دامت المعرفة بالحدس معرفة مباشرة، أو اتحاداً بالموضوع كما هو، فلا يمكن أن نصل إليها إلا بعد مجهود عقلي شاق يؤهلنا إلى انكشاف الحقيقة مباشرة. ولا مناص من بذل ذلك الجهد الشاق لأن طبيعة العقل تقتضي التعبير عن الأشياء بالمعاني رموز ترمز إلى الأشياء الواقعية ولا تطابقها أو تساويها، ذلك لأن رمزاً مثل "إنسان" لا يدل على شيء واحد، ولكنه يطلق على جزئيات متعددة متفاوتة، ولم يكن قابلاً للدلالة على جميع الأفراد الجزئية إلا لأنا جردناه من الحياة، فأصبح قالباً مفرغاً لا يساوي حقيقة أي فرد.

إن المعاني صور فارغة، مجردة، جامدة، تجزيئية، لحقيقة ممتلئة، حية، واحدة لا تقبل الانقسام، مثل المعاني في ذلك مثل رسم يرسمه فنان لبرج كنيسة "نوتردام"، الرسم مجرد منظر خارجي من وجهة نظر معينة، لا يظهر فيه تركيب البرج الداخلي، ولا يمكن أن تكون معرفتك لحقيقة البرج عن طريق الصورة، مساوية لمعرفتك البرج مباشرة بزيارتك له ودخولك فيه، فرق إذن بين المعرفة المباشرة، وبين المعرفة بالواسطة. المعرفة المباشرة تؤدينا

---

[١] Introduction á la Métaphysique. (Bergson)

إلى داخل الشيء أو كنهه، والمعرفة بالواسطة تعطينا صورة خارجية سطحية عنه. الطريقة الأولى تتم بالحدس، والثانية بالعقل. الحدس اتصال مباشر بالموضوع كلية، والعقل لأنه يحلل ويرمز للأشياء بمعاني جامدة مجردة يجعل صلتنا بالأشياء صلة سطحية.

العقل يجزئ الكل المتماسك إلى عناصر هي المعاني، ونحن علينا أن تكون صورة عقلية عن الموضوع بضم هذه المعاني بعضها إلى بعض، أي أننا نبدأ بالمعاني وعن طريقها نصل إلى الحقيقة. وليس ذلك طريقاً سليماً، أما الطريق السليم فهو حدس الموضوع مباشرة في كليته ثم تحليله إن أردنا ذلك هو المنهج الصائب الذي عليه تقوم الميتفيزيقا: أي معرفة الأشياء في ذاتها.

الحركة والزمن

وقد قام برجسون فعلاً بتطبيق منهجه الجديد في دراسة موضوعين من أبرز موضوعات الميتافيزيقا. أولهما الحركة، وثانيهما الزمن[1] من حيث هو شعور بالدوام والاستمرار. ولنبدأ بالحركة.

يبدأ بنقد منهج الفلاسفة السابقين في دراسة الحركة. أخطأ هؤلاء في تصور الحركة، لأنهم اتبعوا السير المعتاد للفكر الذي يعبر عن الموضوع الحي بمعان جامدة مجردة. فالحركة عندهم مجموعة من الأوضاع، أو عدد

---

[1] La Durée ويترجم أحياناً (الديمومة).

من الوقفات المتتابعة، إشارة اليد مثلاً، تلك الحركة البسيطة، يحللها الفلاسفة القدماء إلى عدد معين من الوقفات التي يمكن لليد أن تقفها. هم بذلك يوجهون انتباههم لا إلى ظاهرة في ذاتها، بل إلى الخط أو الأثر الذي يتخيلون أن الحركة تتركه وراءها، لم يعبروا عن الحركة في ذاتها، بل تصوروها تصوراً مكانياً؛ اتخذوا نقط المسافة التي قطعتها الحركة أجزاء، ثم ركبوا من هذه الأجزاء (وهي النقط) الحركة كلها. وبذلك يردون الحركة إلى شيء مختلف عنها هو المسافة التي قطعتها، ويدرسون هذا الشيء على أنه الحركة ذاتها. وذلك الخطأ مرده إلى التحليل والتجريد اللذين يقوم بهما العقل في سيره العادي.

ولكن لا يتسنى لنا أن ندرك الحركة في ذاتها، ونلمس ما تتميز به من استمرار ووحدة، أو بساطة لا تقبل الانقسام إلى وحدات منفصلة ساكنة، إلا بأن نحل في قلب الحركة ذاتها، وننجذب إلى كنهها؛ سندرك حينئذ الحركة إدراكاً مباشراً كما ندرك جملة موسيقية تتداخل نغماتها وتتصل، لتكون كلا واحداً لا نميز فيه وقفات أو وحدات متفرقة، كل ما ندركه لحن واحد متكامل. لندرك الحقيقة إذن على نفس النحو الذي ندرك به اللحن الموسيقى فلا نلتفت إلى الأجزاء التي تتكون منها، ولا نحللها إلى مجموعة رموز جامدة مجردة، لأن المركب الذي نكونه من هذه الأجزاء لا يمكن أن يحاكي الأصل. فالأصل واحد حي حركي ملموس، في حين الأجزاء ميتة ساكنة رمزية. الأجزاء تزودنا بوجهات نظر فحسب، ولكن الحقيقة لا سبيل إليها إلا بالانجذاب إليها كما ننجذب إلى لحن موسيقى، والتوغل

فيها برمتها كما نتوغل بجماع نفوسنا في غمار اللحن، والاتحاد معها كما نتحد باللحن في انسيابه المتصل.

أما "الزمن" فيقصد به برجسون شعورنا بدوام ذواتنا، ففي أنفسنا سيل متصل من الحياة النفسية الزاخرة تتابع حالاتها. ولكن رغم تعدد هذه الحالات النفسية التي يزخر بها تيار الشعور، فإنا نشعر بذاتيتنا الخاصة وبدوام وجود هذه الذاتية، واستمرارها رغم زوال وتغير كثير من الحالات النفسية. هذا الاستمرار، أو الديمومة هو ما نعبر عنه بالزمن.

راجع برجسون جميع المحاولات التي بذلت للوصول إلى حقيقة الزمن، فوجد أنها جميعاً لا تقدم لنا غير صور مبتسرة عنها. من تلك المحاولات تقريب فكرة الزمن (أي استمرار الذات خلال الحياة النفسية) إلى الأذهان بتشبيهها بطيف ذي ألف ظل، تتتابع ظلاله على الحس في سرعة بحيث لا يتسنى لنا أن نفطن إلى التدرجات الطفيفة في الظلال. فمرور ظلال الطيف على هذا النحو يخلق سيالاً متصلاً من الإحساسات، هذا السيال يشبه النفس أو الذات التي هي سيال متصل من الحالات النفسية تتتابع في سرعة مدهشة لا تشعرنا بأدنى انفصال بين الحالات النفسية.

ولكن برجسون يصرح بعجز هذا التصوير عن التعبير عن حقيقة انسياب الزمن انسياباً متصلاً لا يتفق مع أي تجزيء للحياة النفسية المتصلة الموحدة إلى مجموعة من العناصر النفسية المتعددة. فظلال الطيف المتلاحقة، مهما كانت تدرجاتها وفواصلها غير ملموسة، فهي متعددة غير تامة التداخل شأن الحالات النفسية، إنما هي متجاورة تجاور الأشياء المادية في المكان. وليس

في الانسياب الزمني ما يشعر بتجاوز، أو انفصال، أو انقسام، أو توقف. إن تصوير الزمن بانسياب ظلال الطيف؛ يبعد عن حقيقته التي تتميز بالحركة المتصلة والحياة الزاخرة، التي لا يمكن أن ترقى ظلال الطيف إلى وفرتها واستمرارها.

وإذا كان من المستحيل على أي صورة حسية ملموسة أن تقر بنا من حقيقة الانسياب الزمني الموحد، استحال ذلك من باب أولى على المعاني الكلية المجردة. فكل معنى– كما أسلفنا– رمز منتزع من الواقع، للدلالة على صفة مشتركة بين عدد من الأفراد أو الجزئيات لا نهاية له. فضم المعاني بعضها إلى بعض لتكوين مركب منها يدل على موضوع ما، إنما هو بعد قدر الإمكان عن واقعيته الملموسة وفرديته الذاتية. ماذا علينا أن نفعل إذن، وقد عجزت الصور عن التعبير عن الحقيقة، ووقفت المعاني بيننا وبينها دون إدراكها؟

نقد فكرة الاتصال المباشر

ذلك هو المنهج الذي وضعه برجسون أساساً لازماً للميتافيزيقا، أي وسيلة وحيدة لتحصيل الحقائق المطلقة، المنهج الذي يقتضي معرفة الموضوع الاستقرار في أعماقه، والاتصال المباشر به. وعلى أساس هذا المنهج نقد برجسون محاولات الفلاسفة واعتبرها محاولات مخفقة، فهل قربنا من الحقيقة أكثر من ذي قبل؟ هل أصبحنا بفضله أقدر على التعمق في صميم موضوعات الفكر؟

نحن مقيدون بلغتنا الإنسانية، فلا سبيل إلى التعبير عما ندركه من موضوعات بغير المعاني الرمزية، فهي دائماً الوسيط الذي يصل الذات المدركة

بالموضوع الذي تدركه. حقاً إن المعاني كما قال برجسون تشوه الحقيقة وتعطينا عنها معرفة ناقصة، ولكن هذه حدودنا، وكل ما نطمح إليه أقرب معرفة ممكنة وليس السبيل إلى مثل هذه المعرفة تجاهل العقل، وإحلال منهج لا نستطيع إدراك كنهه. ولا يمكن لعبارات برجسون– وهي بدورها معان ورموز– أن توقفنا على حقيقة ذلك التجاذب العقلي مع الحقيقة، أو ذلك التطابق معها والاستقرار فيها، أو ذلك الاتصال المباشر بها. وكأن برجسون قد أحس بقصور منهجه حين أضاف إلى حدس الموضوع تحليلاً عقلياً له، على أن يكون التحليل لاحقاً للحدس لا سابقاً عليه. وحين أقر بأن الحدس رغم كونه فعلاً بسيطاً يحدث دفعة واحدة، إلا أنه فعل يكتسب بعد جهود عقلية، فلا تعارض إذن بين الحدس وبين فعل العقل. وكل ما هنالك أن برجسون بمنهجه هذا يطمح إلى القضاء على الوسيط بين العارف والمعروف، كي يتصل بالمعروف على نحو مباشر. هو في نفس الوقت محاولة من جانبه لاستكمال وسائل المعرفة. فقد أحس بعجز العقل والحواس على معرفة ماهيات الأشياء، فساهم بمنهجه الذي ظن أنه يفوق وسائل العقل والإحساس قدرة على النفاذ إلى ما وراء الأستار الصفيقة التي تخفي الحقيقة عنا، فيمكننا من أن نتطابق وإياها ونتحدبها؛ وسمي ذلك النفاذ والتعمق والتطابق، سمي تلك الحالة الشعورية الناتجة عن الاتصال المباشر بالحقيقة في أعمق أغوارها "حدساً"، واعتبره شرطاً بدونه تنهار الميتافيزيقا[1].

---

[1] مراجع: Bergson: 1. La Pensée et le Mouvant.

2. La Perception Du Changement

3. Introduction á La Métaphysique.